Al-Adab Journal **Issue. No (151) (December) 2024**

E-ISSN: 2706-9931 **P-ISSN: 1994-473X**

Description of Silent Nature in the Letters of the First Mamluk Era The Book "*Shtouiat*" by Ibn Fadl Allah Al-Omari (749 HIJ) as an Example

Asst. Prof. Ali Issa Muhsen (PhD)
ali_almaliki@uomustansiriyah.edu.iq
Mustansiriyah University / College of Arts/ Department of Arabic Language

Copyright (c) 2024 **Asst. Prof.** Ali Issa Muhsen **(PhD)**

DOI: https://doi.org/10.31973/d2q0z734

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

Abstract:

The art of Diwaniyah and Brotherhood letters formed an important pillar in the code of Arabic literature, and it grew during the Abbasid era and became his specific rules and structure. It has been weighed down by costliness and artificiality Badi'I. The writers of the Mamluk era have walked in different directions to develop this art, and many works have emerged to establish it, and Ibn Fadl Allah Al-Omari is the most prominent flags of artistic writing in the first Mamluk era in theory and application, and his book (Shtouiat) can be considered a distinctive model for the Brotherhood letters, it contains dozens of letters exchanged between Omari and writers and scholars of his time, so it reflects the extent to which the art of letters reached in the 8th century of migration. The Shtouiat letters are characterized by their tendency to renew in the structure, most writers and scholars have exceeded the traditional and familiar conclusion, but these letters did not get rid of the constraints of cost and industry Badi'I.

Key words: The first Mamluk era, Ibn Fadl Allah al-Omari, the book of Shtouiat, the art of letters

Al-Adab Journal Issue. No (151) (December) 2024
E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

وصف الطبيعة الصامتة في رسائل العصر المملوكي الأول
كتاب (الشتويات) لابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ) انموذجاً

أ.م.د علي عيسى محسن
قسم اللغة العربية / كلية الآداب /الجامعة المستنصرية

(مُلَخَّصُ البَحث)

شكل فن الرسائل الديوانية والإخوانية ركناً مهما في مدونة الأدب العربي، وقد نما في العصر العباسي، وأصبحت له قواعد وبُنية محددة، وقد ناله مانال الشعر من تغير، فقد أثقله التكلف والتصنع البديعي.

وقد سار كُتّاب العصر المملوكي باتجاهات مختلفة لتطوير هذا الفن، وظهرت مصنفات كثيرة تؤسس له، ويعد ابن فضل الله العمري أهم أعلام الكتابة الفنية في العصر المملوكي الأول تنظيراً وتطبيقاً، ويمكن عد كتابه (الشتويات) انموذجاً مميزاً للرسائل الإخوانية، فهو يحوي العشرات من الرسائل المتبادلة بين العمري وكتّاب وعلماء عصره؛ ولذلك فهو يعكس المدى الذي وصله فن الرسائل في القرن الثامن للهجرة.

وتتماز رسائل الشتويات بميلها إلى التجديد في البُنية، فقد تجاوز أغلب الكتّاب والعلماء المطلع والختام التقليدي، ولكن هذه الرسائل لم تتخلص من قيود التكلف والصنعة البديعية.

الكلمات المفتاحية: العصر المملوكي الأول، ابن فضل الله العمري، كتاب الشتويات، فن الرسائل.

مقدمة

كان الأدب العربي يسير على خلاف الأوضاع المتجهمة في العصر المملوكي، من هجمة مغولية وحروب صليبية وتسلط الأعاجم وفسادهم، ولم يكن هذا العصر مسؤولاً عن التغير الحاصل في الحساسية الأدبية المتمثلة في تفشي الفنون البديعية والتقليد والعقم الفكري، بل أن هذه البوادر وجدت لها موطىء قدم في القرن الخامس الهجري وماتلاه في الأدب العباسي والفاطمي والأيوبي، ومازالت تستفحل حتى إذا جاءت دولة سلاطين المماليك كانت هي القاعدة، وعُدَّ الشعر المطبوع ونهج ابن المقفع والجاحظ والتوحيدي في الترسل استثناءً، وحتى مع هذا التجهم وجد الأدب ظلاً ظليلاً فتنفس النظم والنثر ،وظهرت الموسوعات الضخمة .

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

وقد خطى النثر الفني خُطًى متسارعة حتى بلغ أوجه في العصر المملوكي كثرةً وتنوعاً، وقد أفاد الكُتّاب من المدونة النثرية الضخمة واقتبسوا من موضوعات الشعر، وسلكوا سُبلاً طريفة أثرت الشكل والمضمون، وكان فن الرسائل من بين الموضوعات التي قادت مسيرة التجديد في النثر العربي، وقد وجد كُتّاب عصر المماليك المتنفس في الرسائل الإخوانية في وقت كانت فيه القوالب التقليدية الثابتة تمسك بتلابيب الرسائل الديوانية .

وكانت الرسائل الإخوانية تضم طيفاً واسعاً من موضوعات أصبحت بمرور الزمن تقليدية إلى حد بعيد كالتهنئة، والتعزية، والشكوى، والعتاب، والتقريظ، والألغاز، وطلب الحاجات، وغيرها، وقد تعلق مناط التجديد بموضوعين خرجا من عباءة الاخوانيات هما: رسائل رياضة الخاطر والرسائل الوصفية، وعلى النحو الآتي :

أولاً / رسائل رياضة الخاطر: وهي تطرق موضوعات مقترحة وغير معهودة لامتحان قريحة الكُتَّاب والمُنشئين المبتدئين، وقد مهد ضياء الدين بن الأثير(٦٣٧هـ) السبيل لهذا النمط في ديوان رسائله (ابن الأثير، ١٩٨٣ ، ص ٩٣، ٩٧، ٩٨، ٩٩)، واقترح شهاب الدين محمود الحلبي(٧٢٥هـ) جملة رسائل طريفة في كتابه (حسن التوسل) (الحلبي، ١٩٨٠، ص ٣٨٢)، وتبعه الأديب زين الدين عمر بن الوردي (٧٤٩هـ) (ابن الوردي، ١٩٨٦، ص ١٧).

ثانياً/ الرسائل الوصفية: وتختص بوصف الطبيعتين الصامتة والناطقة، وتعد رسائل الصيد أهم تجلياتها، وهي مقتبسة من الشعر الطردي، وتصف رحلة الصيد ومشاهده والطرائد وحيوان الصيد، ويعد عبد الحميد الكاتب (١٣٢هـ) أول من دبج رسالة في الصيد (صفوت، ١٩٧٠، ٤٦٤/٢)، ثم طور ابو اسحاق الصابي(٣٨٤هـ) هذا النمط في العصر العباسي (ابن حمدون ، ١٩٩٦، ٢٨١/٥)، وانحسرت رسائل الصيد في العصر المملوكي فلم نجد الا انموذجاً واحداً منها للكاتب تاج الدين ابن البارنباري(٧٥٦هـ) (القلقشندي، ١٩٨٧، ١٨٨/١٤).

واستعاض الكتّاب المماليك عن رسائل الصيد التقليدية بنمط آخر يُصطلح عليه (قِدْمَات البندق) وهي تختلف عن النمط التقليدي في استعمال الصياد كرات البندق التي تُصنع من الطين أو الحجارة او الرصاص وقد كانت مستعملة منذ العصر العباسي، وتصف هذه الرسائل أحوال الرماة وطيور الصيد (القلقشندي، صبح الأعشى، ١٩٨٧، ٦٩/٢)، وتتسم بالطول والتكلف الشديد بخلاف النمط الأول، وأهم كتّابها علاء الدين بن عبد الظاهر(٧١٧هـ) وشمس الدين بن الصائغ (٧٢٠هـ) وشهاب الدين محمود الحلبي (النويري، ١٩٣٣، ٣٤٣/١٠).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

ولا تقتصر الرسائل الوصفية على رسائل الصيد بل تتعداه إلى وصف بقية مظاهر الطبيعة كالحيوانات، والنباتات، والأنهار، والشمس، والقمر، والنجوم، والمطر، وغيرها .

ابن فضل الله العمري وكتابه الشتويات

ينتمي العمري الى أسرة من ذوي الأقلام، احترفت الترسل الديواني وارتقى بها الحال حتى تولى والدهُ وأعمامهُ وأبناؤهم وحفدتهم كتابة السر في دواوين الإنشاء المصرية والشامية، وقد تمرس العمري في الكتابة حتى ولي ديوان الانشاء بدمشق لمدة يسيرة، وكان فيه من حدة الطبع والمزاج ما جلب عليه سُخط السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١هـ) غير مرة فعوقب بالعزل، والسجن، والمصادرة (العمري، ٢٠١٠، ١٢/١).

وقضّى الرجل سنواته الأخيرة في داره على سفح جبل قاسيون بدمشق، وتهيأ له حينئذ المجال للتأليف والتصنيف، فوضع أهم موسوعات العصر المملوكي(مسالك الأبصار في ممالك الأنصار) في (٢٧) مجلداً في الجغرافية والتاريخ وتراجم لطوائف شتى من القُرّاء والمُحدثين والفقهاء والمتصوفة والشعراء والكُتّاب والنقاد وغيرهم (العمري، مسالك الابصار، ٢٠١٠/ ٦٩/١)، وكانت له اليد العليا في التنظير للتراسل الديواني في كتابه الهام (التعريف بالمصطلح الشريف) الذي يعد دستوراً للكُتّاب وأحد الأعمدة التي اتكأ عليها القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى) (القلقشندي، صبح الأعشى، ١٩٨٧، ٣٢/١)، ولذلك فإن العمري يحتفظ بمكانة جليلة في مدونات العصر المملوكي (الصفدي ، ١٩٧٤، ٢٥٢/٨).

وعند إقامته على سفح الجبل تواتر وقوع الثلج الكثيف في شتاء عام (٧٤٤هـ) وشتاء العام الذي يليه والذي وافق شهر رمضان، وهي ظاهرة لم تر دمشق مثلها منذ أمد بعيد، وقد تراكم الثلج على اسطح البيوت، وأغلق الطرقات ،و أعيى الناس أمره (ابن كثير، ٢٠٠٧، ٣٢٧/١٦)، فأرتأى العمري مراسلة صحبه وذويه في هذا الطارئ (... حتى تكلف الناس في زوال أثره بعد عينه الى أنفاق الحمل، وجلَّ خطبهُ ودونهُ الحادث الجلل، فكتبتُ الى أفاضل العصر أعلمهم الخبرَ واستعلم ... وقد جمعتُ ما كتبت به وأجابوا بين دفتي هذا الدفتر، وأضفت الى هذه السنة ما تقدم من السنة الماضية وتأخر، وسميته الشتويات) (العمري، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٥٥)، فكانت حصيلة ذلك (٥٢) رسالة مُرسلة و(٣١) رسالة واردة .

ويبدو أن غرض العمري الرئيس من الشتويات هو ترميم علاقاته مع نظرائه من نُخب المجتمع التي تضررت بسبب حدة مزاجه وعمله السابق في ديوان الإنشاء، ونقصد هنا كبار القضاة والمُحدثين والفقهاء – من مختلف المذاهب– والخطباء والشعراء والكتّاب والمؤرخين،

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

ومن ذلك مثلاً الجفوة التي كانت بين العمري وقاضي قضاة الشافعية الشيخ تقي الدين السبكي (٧٥٦هـ)(السبكي، ١٩٧٦، ٢٠٥/١٠).

وقد واتته فكرة الرسائل بعد أعوام من نكبته واضطراره إلى السكن في سفح قاسيون، وكانت الشتويات محاولة ضمن محاولات أخرى لوصل ما انقطع، فقد صنف العمري كتابين آخرين هما: (ذهبية القصر) و(دمية القصر) تناول فيهما تراجم معاصريه من المشاهير و الشعراء (العمري ، مسالك الأبصار، ٢٠١٠، ١٧/١)،فضلاً عن التراجم المسهبة لمعاصريه من الأعلام في موسوعة مسالك الأبصار .

وتحوي الشتويات رسائل إلى أعلام القرن الثامن الهجري ممن يشار لهم بالبَنان، ويكفي هنا التنويه أن من بينهم المُحدث والمؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ) صاحب تاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء وتذكرة الحُفّاظ، والشيخ تقي الدين السُبكي قاضي قضاة الشافعية وولده القاضي تاج الدين السُبكي (٧٧١هـ) صاحب طبقات الشافعية الكبرى، والشيخ ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) صاحب زاد المعاد في هدي خير العباد، والكاتب صلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ) صاحب الوافي بالوفيات وأعيان العصر، والشاعران ابن الوردي (٧٤٩هـ) وابن نباتة المصري (٧٦٨هـ) وغيرهم.

وعلى الرغم من مراسلة العمري لأعيان عصره فإن كتاب الشتويات لايرد ضمن قائمة آثاره التي أوردها معاصروه، مايشي أنه لم ينتهِ منه؛ لعدم ورود أجوبة على الكثير من رسائله؛ ولذلك فإن الاضطراب يبدو على مُحيا الكتاب جلياً، ويتمثل فيما يأتي :

١- لا يراعي الترتيب الموجود في الشتويات تواريخ الإرسال، فقد أرسل العمري من دمشق رسالة إلى الصفدي وهو في القاهرة وهي مؤرخة في محرم سنة ٧٤٥ هـ، ولم يصله الرد (الصفدي، الحان السواجع بين البادئ والمراجع، ٢٠٠٤، ١٦٢//١)، ثم يورد بعد ذلك جملة مراسلاته مع الصفدي وهي مؤرخة في سنة ٧٤٤ هـ (الصفدي، ألحان السواجع، ٢٠٠٤، ١٥٢/١).

٢- ترتيب الرسائل فيه بعض الخلل، فقد أورد العمري رسالة غير موجهة قال إنها الأخيرة (العمري، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٢٤٥)، وفيها ترحيب بانقضاء الشتاء ومقدم الربيع، ولحق ذلك مباشرة ايراد مراسلاته مع صلاح الدين الصفدي وغيره (العمري، الشتويات، ٢٠١٧، ٢٤٦)، فأما أن تكون هذه المراسلات وجدت بعد وفاة العمري وأضيفت للكتاب، وربما تكون مراسلاته مع الصفدي بالذات قد نُقلت من كتب الصفدي كأعيان العصر وألحان السواجع (الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ١٩٩٨، ٤٢٧/١)، وأما أن

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

يكون ذلك الاضطراب من صنع النُساخ، فليس من المعقول أن يخطئ الرجل في تنظيم الرسائل.

٣- يرسل العمري بعض الرسائل ولا يأتيه الرد، مثل رسالته لزميله الشاعر ابن الوردي (العمري، الشتويات، ٢٠١٧ ، ١٥٢)، وقد أشار الأخير في ديوانه إلى رسالة العمري وأجاب عنها (ابن الوردي، الديوان، ١٩٨٦، ص ١٨١)، ومعنى ذلك أن الرد لم يصل للعمري، أو أن ابن الوردي لم يرسل الرد أصلاً، وتكررت هذه الحالة مرات عديدة في الشتويات (العمري، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٤٩،١٤٢،١٤١،٧٦)، وكان العمري حريصاً في بعض الأحيان أن يكرر الكتابة في حال عدم الرد كما فعل مع قاضي قضاة الشام بهاء الدين السبكي(٧٧٣هـ) حتى أجابه (العمري، الشتويات، ٢٠١٧، ١٢٩).

وصف الثلج في الشعر والنثر

كان تساقط الثلج مدعاة للسرور والبِشر عند العرب، وكان نعت الشعراء له خجولاً في بادئ الأمر؛ لأنه باب جديد في الشعر ليس لشعراء الجاهلية به عهد، وكان أول العهد به في العصر الأموي، وشبهوه بالقطن كما في قول الفرزدق(١١٠هـ) واصفاً ليلة شاتية :

(وأوقدت الشَعرى مع الليل نارها وأمستْ مُحولاً، جِلدَها يَتوسفُ

وأصبحَ مبيضُ الصَقيعِ، كأنه على سرواتِ النيبِ قطنٌ مُندف)

(الفرزدق ، ١٩٨٣، ١٢٠/٢) وتابعه العرجي (١٢٦هـ) في ذلك :

(كأن سقيط الثلج ماحُصبتْ بهِ على الأرض قُطنٌ أو دقيقٌ مغربلُ)

(العرجي ، ١٩٩٨، ص ٢٩٥)، ثم فتق الشعراء أكمام المعاني فتلونت أوصاف الثلج، فهذا أبو تمام (٢٣١هـ) – في إحدى أراجيزه – يصور الأرض في موسم الربيع بعد ذوبان الثلج بالكهل الذي دبت فيه روح الشباب :

والشمسُ ذاتَ حاجبٍ مَحجوبْ

قد غَرُبتْ من غيرِ ماغُروب

والأرضُ في ردائها القَشيب

في زَاهــرٍ من نبتِها رَطيب

بعد اشتِهَابِ الثَلجِ والضَريب

كالكهلِ بعدَ السـنِ والتَحنيب

تَبدلَ الشـبابَ بالمَشـيب)

(ابو تمام، ١٩٧١، ٥٠١/٤)، ويذهب كُشاجم (٣٦٠هـ) إلى تشبيه الثلج بالفضة واللؤلؤ والكافور والشيب :

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

(الثلج يسقـــطُ أم لُجينٌ يُســبكُ أم ذا حصَى الكافورِ ظلَّ يُفرَّكُ
راحـتْ بهِ الأرضُ الفضـــاءُ كأنهَا من كُلِ ناحـــيةٍ بثُغرٍ تَضحك
شابـــــتْ ذؤابُـــها فبيَن ضحكُها طَرباً وعَهدي بالمشيبِ يُـنسّك
أوفى على خُضرِ الغُصونِ فأصبحتْ كالدُر في قُضبِ الزُبرجد يُسلَك)

(كشاجم ، ١٩٧٠، ٣٧٨)، ولم يبتعد الصاحب بن عباد(٣٨٥هـ) كثيرا عن ذلك حين شبه الثلج باللؤلؤ المنثور والكافور :

(أقبلَ الثَلجُ فانبسطْ للسُرور ولشُرب الكَبيرِ بعدَ الصَغير
أقبلَ الجَو في غَلائلَ نور وتَهـادَى بلؤلؤٍ مَنثـــور
فكأنَ السَمَاء صَاهرتْ الأر ض فصارَ النُثار من كافور)

(الصـاحب بـن عبـاد، ٢٠٠١، ص ١٥٢)، والكـافور نبـات أبـيض، طيـب الرائحـة، يستخرج منه بلور شفاف (ابن منظور، ١٩٧٤، مادة (كفر))، وسيجد نعت الثلج بالكافور صداه فيما بعد لدى الشعراء والكُتّاب، فمن الشعراء أبو الفضل الميكالي(٤٣٦هـ) الذي وصف تناثر الثلج على غصون الشجر بقوله :

(نَثرَ السَحابُ على الغُصونِ ذُريرةً أهدتْ لَها نُوراً يروقُ ونُورا
شابـــتْ ذؤابُـــها فعُدنَ كأنَـها أجفانُ عينٍ تحملُ الكافورا)

(الثعالبي، ١٩٨٣، ٤٣٠/٤)، وهكذا نجد أن الصور المُبهجة قد تنوعت وازدانت بالفرح لروعة منظر الجبال والوديان والرياض المُجللة بالثلج، وما يتركه ذلك من أثر حسن في النفوس. اما العمري فكان له شأنٌ آخر متصل بما يقاسيه، وقد وصف الثلج بأوصاف سوداوية غريبة المنحى، فهو وحشٌ مرعبٌ ينشر الخوف والدمار والظلام، ويُعطل سُبل الحياة ويُفرق الأحباب ويقطع الأرزاق وغير ذلك، وراح يسبه ويلعنه في شعره :

(سُحقاً لهذا الثَلجِ سُحقا قدْ عذبَ الدُنيا وأشقى
عمَّ الذَوائـــبَ والثَرى ولأجلِ ذا لمْ يُبقِ فرقا)

(العمري ا.، ٢٠١٧، ص ٢٣٥)، ويصف الشتاء بالشيخ المجنون :

(لقد خرَّف الشيخُ الحِسَّابَ وزادَ في تَهوسهِ أو قد عَراهُ جُنـونْ
لقد جُنَّ حـتى صَارَ يَنتفُ شيبـــهُ ويَرميهِ رَمياً والجُنونُ فنون)

(العمري ا، الشتويات ، ٢٠١٧، ص ٢٣٦)، ويشتكي من الثلج بكل لسان مر الشكوى:

(والثلجُ جاءَ مُطابـِقاً مِبْـيضهُ في الجو تحتَ الغيمِ من مِسودهِ
أنىّ تَكـرمَ وهو صُـلبٌ يابِـسٌ يبستْ يداهُ كلاهُـــما من زِنده
لاكـان يوم جـــاء فيه فإنه يوم تبين نحســـه من سعده

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

وأتى بجيش الزمهـــرير وخلفه جيش الســـيول وكلها من جنده
وأتى عبوس الوجه يطرق ناكسا لكن ضـــحوك البرق حامل بنده
ياليت ذاك النوء مات وعُـجلت لحياة بؤس حيـــاته في لحده)
(العمري ا.، الشتويات ، ٢٠١٧، ص١٢٨) .

وقد تراوحت صورة الثلج في الرسائل بين الغرابة والتعقيد والبساطة، ومكمن ذلك أن مِخيال الكُتّاب بدأ من حيث انتهت قرائح الشعراء، فنحن نصادف في الرسائل مثلاً تشبيه القاضي الفاضل (٥٩٦هـ) للثلج بالنجوم ورغوة الصابون في إحدى رسائله في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي (٥٨٩هـ): (فأما الثلوج التي وصَفَها ذلك البيان فأجَجَها، بل أهداها الى الصدور التي هي بيوتُ نارِ الشوق فأثلجَهَا، فقد تمثلت البلاد وكأنما نشرَ المولى عليها عِرْضَه، وسرّني أن سر ذلك الفضاء فضَّه، وأراني النجوم في هذه السنة وقد ناصحت في خِصْبها فنزلت بأنفسها، وبرزت ظاهرةً في النهار بجواريها وخُنسها، وأجدر بها أن تكون سنةً تغسلُ وَضَر الكُفرِ بصابون ثلجها، وتبشر العزمة الناصرية من هذه الرغوة بما تحتها من صريح فلجها) (الصفدي، نصرة الثائر على المثل السائر، ١٩٧١، ص ٢١٥).

ونلتقي ايضاً بمن يُشبِه الثلج بالرغيف الأبيض، وهو ابن الأثير(٦٣٧هـ) الذي يصف – في إحدى رسائله – جيشاً معادياً حاصر مدينةً إبان فصل الشتاء فسقط الثلج عليه فأصبح محصوراً: (وقد عاجلهُ قتالُ البُروقِ قبلَ البوارق، وأحاط به الثلجُ فصار خنادق تحولُ بينهُ وبين الخنادق، والشتاءُ قد لقي عسكرهُ من البَرد بعسكرِه، والسماءُ قد قابلتهُ بأغبرِ وجهها لا بأخضرِه، والأرضُ كأنها قُرصةُ النَّقيّ، وعسى ان تكون أرضُ مَحشرِه) (ابن الأثير، المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، ١٩٧٣، ٢/ ٢٠)، وهو هنا يقتبس الصورة من الحديث الشريف (يُحشرُ الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقُرصة النقي) (البخاري، ٢٠٠٢، رقم الحديث ٦٥٢١)، وقُرصة النَّقِي هي الرغيف الابيض.

ونصادف في طريقنا من لا يجد إلا البساطة وروح الآيات المُحكمات مثل محيي الدين بن قرناص (٦٧٥هـ)، فقد وصف الثلج بالشيب والقطن في رسالة يصف فيها بستاناً في مدينة حماة إبان فصل الشتاء(وعندما سطرها مُتهجماً، كان وجهُ الأفق بالغيم مُتجهماً، وثغرُ حماة بالثلج متبسماً، وقد ظهر عليه السكون، حيث شابت منه القرون، وكان المملوك مُشرفاً على مكان أُحيط بثمر، والدوح يقلب كفيه على ما أنفق من عمره، وقد تزهد فتجرد من حرير أوراقه ولبس قطن زهره، فلا ترى إلا أشجارا قائمة على أصولها وكروما خاوية العروش، وسقوط الثلج كالفراش المبثوث وجبال غيوم كالعهن المنفوش) (الصفدي، نصرة الثائر، ١٩٧١، ص ٢١٦).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

السمات الموضوعية للشتويات

لا تكاد تمر سانحة من دون أن تدونها مِداد الكُتّاب المماليك، وقد شكلت الكوارث والظواهر الطبيعية من الزلازل والطواعين ومواسم الفيضان والجفاف والقحط وغيرها مادة للرسائل، وكان اللُب في ذلك وصف تمظهرات هذه الطوارق وتبعاتها من الموت، والعَوز، والهلع ،والفرح، والاستبشار، والحسرة، وسيماء الخراب، وانتجاع سبيل الخرافة، وصلوات العامة، وابتهالهم لله سبحانه لكشف الضر تارة، وتوسلهم بالخزعبلات تارة أخرى، ومن ذلك مثلاً أن الأديب ابن الوردي أنشأ رسالة مطولة أسماها (النبأ عن الوبا) لوصف آثار الوباء الذي ضرب بلاد الشام عام (٧٤٩هـ) (ابن الوردي، الديوان ، ١٩٨٦، ٨٦)، ووضع السيوطي (٩١١هـ) كتاباً عن الزلازل سماه(كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة) (السيوطي، ١٩٨٧، ص ٨) ويمكن تلخيص السمات الموضوعية للشتويات بما يأتي :

أولا :هجاء العمري للثلج والردود عليه

انتهز العمري حادثة الثلج لكتابة الشتويات وغايته– كما قلنا– وصل ما انقطع من حبال الود، حتى مع انشغاله بالتأليف والتصنيف، وهو في هذه الرسائل لا يبتعد عما ذهب إليه في شعره من هجاء الثلج.

ويلوح لنا أن هجاء الثلج ما هو إلا قناع لشكوى الدهر، واتخذ العمري ذلك سبيلاً لهجاء السلطة الفاسدة المتكونة من الأعاجم وهذا كثير في الأدب العربي، وإذا كان الشعراء قد اعتادوا شكوى الزمان أو الدهر بالاشارة الى الشيب أو طول الليل أو الضجر من المكان أو الغربة والاغتراب وغيرها، فإن العمري ارتأى مهاجمة الطبيعة متمثلة بالشتاء والثلج بديلاً عن مهاجمة السلطة، وكانت شكوى العمري ليست عن فقر وحرمان كما هو حال أغلب الشعراء، فقد كان العمري من الثراء ،إذ شيد لنفسه داراً ضخمة في سفح الجبل بعد نكبته وعزله من ديوان الإنشاء (ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٠٠٧، ٣٤٦/١٥)، وأرسل للصفدي رُخاماً كثيرا حين بنى داره (الصفدي، أعيان العصر ، ١٩٩٥، ٤٢٤/١)؛ ولذلك جاءت الشتويات خلواً من ذكر السلاطين المماليك أو امتداح عصرهم .

ولم يترك العمري فناً من فنون البيان والمعاني والبديع إلا واستعمله، كأن هذه الرسائل جددت عهده السالف أيام الكتابة في دواوين الإنشاء، وعدها مِراناً للقريحة بعد غياب، فراح ينشأ:

١– (كيف أنتم في هذه الأيام البيض إلا أنها السُود، وهذه الأنواءُ القائمة والناسُ قعود... وأقبِح بهذه الأنواء الساقطة، والأنوار التي هي لظل هذا الثلج لاقطة، وبُعداً لهذه الثلوج المداجية) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٥٦).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

٢- (...كيف أنتَ في هذا الشتاء، وقِلةَ مائهِ وظُلمةَ سمائهِ ومِزاجه الحايف، وثلجهِ الخاشف، ومقاساة جليسهِ الناشف، ونحنُ منه في ظلامين مِسودٌ ومبيض، وغمامين مُخيمُ ومقوض، وبرقين مُصرحٌ ومُعرض ... والأرض وقد شققت عليها الأكفان، وخيطت بالكافور، وعن وجود الزعفران والعقود واهية واهية، والشجر كأنها أعجازُ نخل خاوية) (العمري ا.، الشتويات ، ٢٠١٧، ٧٦).

٣- (كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء الذي أقبل يُرعبُ مقدمهُ ويُرهبُ تقدمهُ، ويريبُ اللبيب من برقهِ المومض تبسمهُ، وكيف حالهُ مع رعودهِ الصارخة ورياحه النافخة، ووجوهِ أيامهِ الكالحة، وسُرر لياليه التي لاتبيتُ منها بليلة صالحة، وسحابه وأمواجه وجليده، والمشي فوق زجاجة) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ٢٤٦) .

ويُفهم مما سبق – وغيره الكثير – ماكان يمر به العمري من مزاج سيء بعد نكبته وعزله واضطراره الى السُكنى بعيداً، وزاد ذلك ابتعاد ولديه (عمر وعبد الله)، وقد كتب الى ولده أبي حفص عمر رسالة يتشوق فيها ويتألم لفراقه ويشرح الحال بعد سقوط الثلج دون ان يتلقى منه الجواب (... وشُغلُنا بكم أكثر من شُغلِنا بأنفسنا، وبكم أكثر تهوسنا، فعرفونا بأخباركم، وهل ألم بكم بعض هذا أو مر بداركم، ونحن الآن غرقى، وما أظن وإن زاد هذا نبقى)(العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ١٤٨).

وإزاء الويل والثبور الذي تضج بهما الكثير من رسائل العمري كانت ترده بعض الردود الهادئة المطمئنة والمستبشرة بمقدم الثلج مهتدية بالكتاب العزيز والشعر، فقد استهدت إحدى الرسائل بسورة النور، الآية (٤٣) : { ألم تر أن الله يُزجي سحاباً، ثم يؤلف بينهُ ثم يجعله رُكاماً فترى الودقَ يخرجُ من خلاله وينزل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ فيصيب به من يشاءُ ويصرفهُ عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهبُ بالأبصار يُقلبُ الليل والنهار إن في ذلك لعبرةٌ لأولي الأبصار} (العمري ا.، الشتويات ، ٢٠١٧، ص ١١٠).

واقتبست رسالة أخرى من سورة الطلاق، الآية (٧) ومن شعر طرفة بن العبد: (الحمد لله رب العالمين } سيجعل الله بعد عسر يسرا { فإن مع العُسر يُسرا ، إن مع العُسر يسرا

فَسَقى دياركَ غيرَ مُفسدِها صوبُ الربيعِ ودَيمةٌ تَهمي)

(العمري ا.، الشتويات ، ٢٠١٧، ١٨٧) .

وقد جنح العمري – في قليل من الرسائل – الى الهدوء وثاب إلى رشده لدواعي الاحترام والإجلال اللذان يكنهما لبعض الأصحاب مثل قاضي قضاة حمص جمال الدين محمد الشريشي (٧٦٩هـ)، وقد جرت بينهما المراسلات نثراً ونظماً فأجاب العمري واصفاً الأنواء :

(مالهذي الشمسِ غابتْ بعد آبٍ كيفَ آبتْ

وغُصـــونُ الدوحِ لمَّا آن أن تولدَ شَـــابت
ماكأن الشـــمسَ إلا أبْصَرَتنا فاســـترابت
أنكـــــرتْ مِنَّا رِجالاً بعدمَا شَابتْ تصـابت
بعدمَا عَمَّـــتْ تنوحُ حيثُ صبتْ ثم صَابت
كدرَ العيشـــةَ لكن بعد ذا أصحتْ وطابت
قد تبـــــدتْ فكأنا مارأينا الشـمسَ غابت
ذات حُسْـــنٍ وجَمالٍ عن حِسانِ الحُور نابت)

(العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ١٣٢).

ثانياً /الاعتماد الكبير على الشعر في الرسائل

لاتشذ الشتويات عن أسلوب الرسائل الإخوانية فيما يخص اعتماد الشعر كما رأينا، بل أن بعض المراسلات خلت نهائياً من النثر واقتصرت على الشعر، ولاسيما إذا كان المرسل إليه شاعراً مثل ابن نباتة المصري (العمري ا.، الشتويات ، ٢٠١٧، ص ٦٩)، وكتب العمري إلى غيره ايضا رسائل شعرية بالكامل مثل رسالته إلى الأديب بدر الدين الغزي (٧٥٣هـ)، والقاضي جمال الدين السبكي (٧٥٥هـ) ،وأخيه القاضي بهاء الدين السبكي (٧٧٣هـ)، وعز الدين حمزة بن شيخ السلامية (٧٦٩) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٧٧،٨٦،٩٣، ٩٥، ١٢٨)، وكانت الردود شعرية ايضا متماثلة بالبحر والقافية، ولذلك قلنا إن الشتويات كانت مِرانا بعد غياب، ومما يؤكد ذلك أن العمري أفرد مجالاً لبعض الرسائل التي يقترحها للمنشئين كي يأخذوا بها، ومنها كتاب عن يوم صحو وآخر في وصف الثلج وغير ذلك (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢)، وذلك جرياً على عادته في كتابيه مسالك الابصار والتعريف بالفن الشريف .

ثالثاً / طول الرسائل

تباينت رسائل العمري والردود عليها في الطول، بين طول مفرط وقصر مفرط، وتميزت بعض ردود كبار الأعلام بالقصر والتكثيف والروح الدينية، ومن ذلك مثلاً جواب قاضي قضاة الشافعية تقي الدين السبكي (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٥٨)، وجواب المؤرخ والمُحدث الكبير شمس الدين الذهبي وكان قد فقد بصره حينذاك، وقد كتب العمري إليه يمدحه، ويشكو الثلج (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٤٠)، فرد الذهبي مادحاً الثلج ومُعرضاً بالعمري(سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعم عُقبى الدار، فالثلج رحمةٌ وطهور، ودمشقُ بلدةٌ طيبة وربٌ غفور، والشهرُ رحمة أخرى، وقيامه نعمٌ تترى، والتضرع الى الله تعالى بتخفيف الثلج عبادة، وتكثيره في الشام فضل وسعادة ... وإنما الشجاعة صبر ساعة، ونعوذ

بالله وبرضاه من سخطه وغضبه، ونتوب إليه من قنوط الجاهل ولغطه، كما نعوذ به من برد الزمهرير وحر السعير، فهو مولانا ونعم النصير، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لايشكرون) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٤١).

أما أطول الرسائل فكان جواب الفقيه جمال الدين محمد بن عبد الرحيم المسلاتي(٧٧١هـ) قاضي المالكية بدمشق، وجاء في (٣٤) صفحة من الكتاب، وهو أنموذج للنثر المغربي، ويضج بآيات التزويق اللفظي من السجع ،والجناس، والطباق (يقبلُ الأرض وإن حال دون فراشها الثلج، وكساها وما حال عن لثمها وإن حجبها ونسيها وأنشأها، ولو بنى على وتدها أوتاد جباله ونصبها ورفعها وأرساها، أو غطى شجرها ومدرها ودسها ودساها، أو قصر أديمها الأحمر وبساطها المزهر ووجهها الأغبر وغسلها ونشاها بل ولو غار في أغوارها، وجاس خلال حشاها وحشاها، وغشيها بسيوف برقه وأبرد ودقه وقسي أفقه وغشاها ...وينهي بعد دعائه الثابت الأساس المُثمر الغِراس، المشهور بين الناس بلا التباس الصادر من سُلالة آل العباس بن مرداس أولي الإيناس والإبساس ورود المُشرِف المُشرَّف المُقبِل المُقبَّل المُفضِل المُفضَّل والعالي الغالي الصافي الضافي العصامي العظامي السيدي السندي فهو الملثم للتمثيل المكرم المعظم الجليل الجلي البهيج البهي الأسنى السني ...) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٨٧).

رابعاً /التنويع والتجديد في الشتويات

يلمح قارئ الشتويات سعي العمري الحثيث إلى كسر النمطية والرتابة، في حين كان متوقعاً أن يخرج هذا الكتاب شبيهاً بديوان رسائل، بمعنى أنه يحوي رسالة للعمري ويليها الرد، ورسالة أخرى يعقبها رد وهكذا، وهذا المنهج موجود في الكتاب، وفضلاً عنه وجدنا رسائل للعمري بلا رد ، ووجدناه يكرر الإرسال حتى يأتيه الرد، وثمة رسائل وردود تجمع بين الشعر والنثر، ورسائل وردود أخرى شعرية بالكامل – كما أسلفنا – تتحد في الوزن والقافية، ونجد العمري يُفرد مجالاً لمقطوعات شعرية قالها في الثلج، ويخصص فصولاً لرسائل عدة كتبها في الثلج لغايات تعليمية.

ويلفت النظر احتواء الشتويات على ثلاث رسائل وردت للعمري من دون أن يراسل أصحابها كما هو شأن بقية الشتويات، الأولى لنجم الدين محمد بن الشهيد (٧٩٣هـ) والثانية لأمين الدين ابراهيم بن غانم (٧٦١هـ) والثالثة لنجم الدين أحمد بن غانم (٧٥٨هـ) وهم من كُتّاب ديوان الإنشاء بدمشق ،إذ كان يعمل العمري، ويظهر من الرسالة الثالثة أن صاحبها اطلع على الشتويات ولاسيما رسالة ابن نباتة فأراد أن يدلي بدلوه (ويُنهي أنه وقف على الألفاظ المخدومية الفاضلية الشهابية، لازالت شهب معانيها تنقد، وصلات سحبها بأنواء

المكارم تفتقد إلى ابن نباتة، ومأجاب به في وصف الثلج الذي كلل مفارق الربا، وعلل هبوب الصبا...) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٢٤١)، ومعنى ذلك أن بعضهم اطلع على الرسائل ومع ذلك لم يشع أمر الشتويات .

البناء الفني للشتويات

١-استفتاح الرسائل: دأبت الأقلام العربية على افتتاح الرسائل بالبسملة والخطبة في المكاتبات الرسمية، ويجري اختصارهما في المخاطبات الاخوانية، وقد تواضع الكُتّاب على اشتمال مطالع الرسائل الاخوانية على ألفاظ التعظيم، والدعاء، وتقبيل الأرض والأيادي، والجمل المعترضة، فلما أهلَ العصر المملوكي زاد ذلك واتسع، وكانت طرائق العمري في مسالك الأبصار والشتويات شتى بحسب المناسبة وهوية المخاطب، وقد عمد – في أحيان كثيرة- إلى حذف الكثير من مضامين المطالع من رسائله ومن الردود طلباً للاختصار.

ويُسبغ العمري الفاظ التعظيم والدعاء وتصغير الذات في بعض المطالع، ومن ذلك مثلاً رسالة مطولة إلى الصاحب شرف الدين بن ريان(٧٧٠هـ) الكاتب والوزير ومتولي الدواوين بحماة وقد بدأها بقصيدة مطولة من (٤٣) بيتا ،وأردفها بالنثر (يُقبلُ اليدَ الشريفة العالية الصاحبية الأجلية الكبيرة العالمية العادلية المُدبرية القواصية النظامية الأوحدية الماجدية النعمية الشرفية، كُفيتْ النوائب، ووُقيتْ شر عوادي العوادي، وسح السحائب، وبقيتْ لأثار ذوي الثأر وتبليغ طلبات ذوي الطلائب، وبرِئت من عيب غيث الأنواء) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٧٢)، وقد يختصر ذلك في جمل قليلة وذلك في كتابه الى القاضي والأديب ابن الوردي الذي بدأه بالشعر وثناه بالنثر: (يقبل اليد الكريمة العالية المولوية الشجية الأجلية الغمامية الصدرية العالمية الكاملية الفاضلية الأوحدية البليغية العلامية الزينبية، وقى الله جناب سؤددها وسقى ديارها غير مفسدها) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٥٤).

وقد تكون اللهجة أقل من ذلك إن قلّت رُتبة المخاطب، وهذا مانجده في كتابه الى الفقيه جمال الدين بن قاضي الزبداني (٧٧٦هـ): (جعلتُ ماكتبتُ به الى سيدي، وسيد أهل البلد، فسح الله في أجله في أمر نازلة الثلج أخر ماكتبتُ به لأجعل لكافوره من المسك ختاما، وتأنيت إلى أن شققت أيام الصحو من جلابيبه قتاما، وبعثت بها إلى سيدنا علامة العلماء، وكوكب الظلماء مورد الظما، ومردي النعما ...) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٢٢٥). ولم تختلف كثيرا الاستفتاحات الواردة في ردود الرسائل عن المعهود في هذا العصر، وهي بين اطالة مقبولة وتطويل ممجوج، فمن المقبول نورد كتاب القاضي بهاء الدين السبكي (٧٧٣هـ):(يُقبلُ الارضَ ويُنهي أنه وقف على ماسطرته الأناملُ الشريفة، وحررته الفضائل

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

التي استعبدت كل تليدة وطريفة، فلم أدر أهو سماء نثرت فيها الزواهر المشرقة، أم أرض نشرت برياضها الأزاهر المونقة ...) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٩٧)، ومن التطويل الممجوج نشير الى رد القاضي جمال الدين المسلاتي المذكور أنفا، وقد استغرق المطلع لوحده (٦) صفحات ملأى بالدعاء للعمري ومديحه وتعظيمه (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٨٧).

ويمكن القول باطمئنان إن الاستفتاحات السابقة وغيرها الكثير مثلت عتبةً الدخول إلى صلب الموضوع بما تضمنته من معجم ألفاظ الطبيعة من السحاب، والغمام، والأنواء، والرياض، والأزهار .

٢-العرض: قلنا إن العمري هالهُ أمر الثلج وتبرم منه في رسائله، وكانت الأجوبة ترده متأرجحةً بين التماشي معه ورفض منطقه، و استفاضت الشتويات في عرض الموضوع والإفادة من النص الكريم ،والحديث الشريف، والمثل، والشعر، وحوادث التاريخ ،ومصطلحات العلوم، ويكفي هنا للتمثيل ايراد كتاب العمري إلى القاضي شرف الدين المقدسي (٧٧١هـ) لبيان اختلاف الرؤى، يقول العمري (إن كان أعجبكم عامكم فعودوا الى حِمص في قابل ياسيدي، هذا في حمص لا في دمشق وفي النوبة التي كانت بها لا في الشتاء المُشِق، وهذا الثلجُ ورجاجهُ المُكثر في الطريق، ونؤوهُ وقسوةُ قلب سحابه الرقيق وبياضه في العين، وحياضه المحمية بإفراط البرد أن يمد اللامس اليها اليدين، ومواصله إلا أنه الذي لا يسر منه اللقا وكسائه، ولا جمع الله الشمل منه بالنقا ... فكيف أنتم في هذه المصاعب، وفي مقاساة هذه المدة التي ما عليها قياس في شدة المتاعب) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١١٠).

وكان من جواب المقدسي (... لكن جميع ماذُم به من أوصافه، مُغتفرٌ في جملة مايبديه من إتحافه، فلو شوهدت بعد طلوع شمسه ومضي أمسه سلاسلُ الدُر المنثور على الصخور، وكيف تسلسلَ ماؤهُ الزُلال، فأنشط شاربه من اعتلال، كأنما أنشط من عِقال، وصفا على الصفا، ووعد بالمسرات فوفى، ثم كشفت جُلَّق عن قناعها، ووصلت بعد امتناعها، ففرشت أرضها زمرداً أخضر وياقوتاً أحمر وأزرق وأصفر) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١١٢).

على أن أهم ما استحدثته الأقلام المملوكية هو الاشارة إلى مصطلحات العلوم في تضاعيف الرسائل، فراحت تنوه بألفاظ الفقه، والحديث، والنحو، واللغة، والبلاغة، والنقد، والمنطق، وغيرها، ومثال ذلك ماجاء في رسالة جمال الدين المسلاتي المشار إليها سلفا وهي رسالة تعج بالاستطراد (... وأشغلهُ فصلُ القضا والقضاء بالفصل عن معرفةِ الوصل

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

والفصل، وإحكام القضاء، وموجبُ الالزام عن المطابقة، والتضمُن والإلتزام، وفرطُ الاشتغال عن الإفراط والايغال، ففكرته في باب الحجر والتغليس لا في التأسيس والتجنيس، وباب الأيمان والنذور لا في رد الأعجاز على الصدور، وباب العارية والعُرية دون الاستعارة المرشحة، وترجيح الاستعارة، وباب الجُعل والإجازة، دون الانتحال والإعارة ...) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٩٥)، وهذا مقطع صغير من استطراد طويل عرج فيه الكاتب الى عشرات المصطلحات العلمية وعنوانات الكتب، وقد استعان هنا بجملة من مصطلحات الفقه والبلاغة .

ولعل أروع مافي الشتويات ماكتبه العمري الى ولده عمر، وهما كتابان صادقان يمثلان عاطفة أب تجاه ولده في أوقات عسيرة ، يقول العمري في أحدهما : (... وتقدم كتابي الى الولد، وأنا أعرفهُ الخبر، وأرى عينهُ، وأنا أسأل الله تعالى أن لا يكون قد رأى مثلهُ من العِبر، وأُعلمهُ أن الولد عبد الله ومن معه في خيرٍ وسلامة، وتحيرتُ في كشف أخبارهم في وَسَط تلك الشدة التي كان لا يستطيع فيها من هو واقفٌ في الدهليز أن يخرجَ إلى باب الدار، ولايعلم فيها جارُ البيت إن كان عابراً أو مات الجار ... وهل مسحَ عليكم طائرُ هذا النوء طرفَ جناحهِ، أو أزعجكم ضاري هذا الشتاءُ الكلب بنُباحه، أو زاركم هذا الشامي القادم بأرض العراق، أو راعكم هذا العارض، وركب اليكم برقهُ البُراق) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٤٧).

وكثيرا ماكان العرض محفلاً للاقتباس والاستشهاد والتضمين، وقد نبهنا فيما سبق إلى آي الكتاب العزيز، وكيف أنها جاءت في سياق الرد الهادىء، أما الحديث الشريف فالتلميح اليه قليل، وقد جمعت بعض النصوص بين القرآن الكريم والحديث الشريف كقول القاضي جمال الدين السبكي(٧٥٥هـ) في سياق حديث مطول عن إصرار بعض المؤمنين على العبادة في المساجد حتى مع انكفاء الناس عنها أيام الشتاء الباردة، وانقطاع السُبل بسبب الثلج والوحول (وهؤلاء لم يقووا على ذلك بقِوى الأبدان، وإنما أطاقوه لعمرك بقوى الإيمان، فلا تهولهم الأهوال، ولا تحول بهم الأحوال، تعرفهُم بسيماهم وقليلٌ ماهم . قال بعضهم إذا تدثرت بنوافج البرد عوضاً عن حُباب الماء، وتبطنت لهب الجوع المانع من الهجوع، فحصلت على أمرين أطارا النوم من أجفاني ولم أُسر بذلك فما أجفاني، فكيف لا أسر بما يوفقني بقلب خاشع مع الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع هذه نبذةٌ من أمر هذه المسائل، ولم يكن المسؤول عنها بأعلم من السائل) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٩١).

ويضم النص ثلاثة توجيهات للنص الكريم، فقوله (تعرفهم بسيماهم) اشارة الى الآية (٢٧٣) في سورة البقرة }... يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافا{، وقوله (قليلٌ ماهم) مأخوذ من الآية(٢٤) في سورة ص} وإن كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصلحت وقليلٌ ماهُم { وقوله (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) مقتبس من الآية (١٦) في سورة السجدة } تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقنهم ينفقون{، أما قوله (ولم يكن المسؤول عنها بأعلم من السائل) فهو مأخوذ من جواب للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم وسلم) عمن يسأله عن موعد قيام الساعة :(ماالمسؤولُ عنها بأعلم من السائل) (البخاري، صحيح البخاري، ٢٠٠٢، رقم الحديث ٥٠) .

ويحتل أبو الطيب المتنبي (٣٥٤هـ) مكان الصدارة في التناص الشعري، فقد ورد غير مرة في متون الرسائل، وقد توسل الكُتّاب تارة بأبياته كاملة أو بأنصاف الأبيات تارة أخرى؛ لتحلية النثر وتمتينه، فهاهو قاضي قضاة الشافعية الشيخ تقي الدين السبكي يشرح المساوىء المتحققة من تكاثر انهمار الثلج بقوله (... فجاءتْ هذهِ الثلوجُ ناقضةً لما أُلفْ، مخالفةً لما عُرفْ، هادمةً للأمور المضبوطة، قد أجلبتْ بخِيلها ورَجْلِها على جميع الغوطة، لاشمسَ تُرى في النهار، وكل مقرورٍ يُنشد :

بأبي الشُّمُوس الجانحاتِ غَوارِبا

(المتنبي، ١٩٨٦، ٢٥٠/١) ولا قمر في الليل من الغيوم التي ألبستنا برد الظلام جلابيا) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٦٢)، وفضلا عن ذلك فإن الرسائل استعانت بكبار الشعراء مثل: النابغة الذبياني ،وحاتم الطائي ،والحطيئة، وجرير، وأبي نواس ،وأبي تمام، والمعري، وغيرهم (العمري ا.، الشتويات ، ٢٠١٧، ص ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٥، ٨٩، ٩١، ٩٥، ٩٨، ١٠٠، ١٨٧، ١٩٣).

ومن المعلوم أن الكثير من أمثال العرب مأخوذة في الأصل من أنصاف أبيات شاعت وأصبحت مضرباً للمثل، ومثلُ هذا موجود في الشتويات فقد ورد في جواب القاضي بهاء الدين السبكي على رسالة العمري أنه لا يستطيع مجاراة بلاغة الأخير وترسله (... ورجعَ إلى ماتضمنهُ المرسومُ الكريم من الإتيان بجوابه، فاسترجعَ وقال: ربنا لاتُحملنا ما لاطاقة لنا به، والعلمُ الشريفُ محيطٌ بأن المملوك ليس ممن يجري جوادهُ في هذا الميدان، ولا ممن يُورى زنادهُ بين أهل هذا الشأن، لا أُعرضُ نفسي للأمر القطيعِ الفاضحِ بل أقولُ لها مقالةَ ناصحِ

يانفسُ كُفّي عن طِلا بِ سلوكِ هذا المَنْهجِ

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

هذا مَقامُ سـواكِ ما هذا بعُشـكِ فادرجي

(العمـري ا.، الشـتويات، ٢٠١٧، ص ٩٧)، فقـولهم (لـيس هـذا بعشـك فـادرجي) (الميداني، ٢٠٠٤، ٢/٢١٥) مثل، ويُضرب للأمر الذي ليس لكَ فيه حق والأولى تركه .

١–الختام : درجت العادة عند أغلب الكُتّاب منذ العصر الأموي حتى أيام المماليك على انهاء الرسائل بالخطبة والدعاء للمخاطب تحبباً وتقرباً، أما في الشتويات فتتعدد أشكال الختام بين النص القرآني والدعاء والشعر، وقد يُجمع بين هذه الأجناس بختام واحد، وكان أغلب علماء الدين أحرص مايكونوا على الختام التقليدي مثلما حرصوا على المفتتح والعرض التقليديين، ومثال ذلك دعاء كتبه القاضي جمال الدين السبكي في جوابه للعمري(والمملوك يحافظُ على صالحِ الدعوات في شريف هذهِ الأوقات عقب الصلوات وسائر القرُبات إن شاء الله تعالى، الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٩٢)، ومن الختام الشعري قول العمري في ذيل كتابه إلى الكاتب تاج الدين ابن البارنباري (... ويدُ النهار قد مزقتْ بعض جلابيب سُحبها، والشمسُ قد أطلتْ تُبصر بعينها ماتم بعد مواراتها وراء حُجبها، إلا أن الغمام ماكلهُ محو، واليومُ من رمضان وما كله صحو

ولابُدَّ من شَكوَى الى ذي مُروءةٍ يُواسيكَ أو يُسليكَ أو يَتَوجعُ(

(العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٥٢) .

ويذهب العمري إلى ما يمكن تسميته بالنهايات المفتوحة وهي محاولة للتجديد في مضامين الرسائل ،وتترك للمتلقي مساحة للتفكُر وتفتح باب التخمين، ومن ذلك قوله في مختتم رسالته إلى الشيخ شمس الدين ابن خطيب يبرود (٧٧٧هـ) : (... وأين أوانُ الربيع ودونهُ سيوفُ هذهِ البروق، وسيولُ هذه الثلوجِ التي ما في مواردها مايروق، وشوائبُ هذا الكدر الذي صفا كالسرائر، وأبيضَّ كالاعراض، وولد غير الإجتماع من حمرة البكاء وذاك البياض) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ٨٩).

وقد شُغف العمري بمثل هذه النهايات وكررها كثيرا فنجده يقول في نهاية رسالته الى الفقيه شهاب الدين البعلبكي (٧٦٤هـ) :(... ومن لنا بمطرٍ يغسلُ من بياضِ هذا الثلج سَوادَ القارِ الذي لبسَ شاهقَ كل طودٍ من الرأس للقدم، وبرقٍ إذا وكّلَ بإزالة هذا الضرر باتَ ساهراً لم ينمْ، ومن للرحاب بإن تُعزل مما ساقتهُ اليها السُحب العِثَّار من بوارك هذه الحُمول، وللطُرق أن تنظفَ من بيض هذه الوُحول، ولعل هذا النوء المقيم يُقوِضُ عنَّا مضاربَ هذا الغُمام، وهذا البحرُ المُتلاطم يزجرُ عنَّا مده، فحسبُنا مانستمدهُ من بحر سيدنا الشيخ الإمام) (العمري ا.، الشتويات، ٢٠١٧، ص ١٤٣).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

وإذا استثنينا أسلوب العمري التجديدي في الرسائل، فإن بقية الشتويات تتراوح بين التجديد والتقليد في بنيتها ، وفي أدناه جدول بأسماء من أجابوا العمري أو راسلوه برسائل نثرية وعدد رسائلهم وتقويمها إن كانت تقليدية أم جديدة ، ولايشمل ذلك الرسائل الشعرية بتمامها .

ت	الاسم	المهنة	عدد الرسائل	تقييم الرسالة
1	تقي الدين السبكي (٧٥٦هـ)	قاضي	2	جديدة
2	ابن نباتة المصري (٧٦٨هـ)	أديب	2	جديدة
3	ابن خطيب يبرود (٧٧٧هـ)	فقيه	1	تقليدية
4	بهاء الدين أحمد السبكي (٧٧٣هـ)	قاضي	1	تقليدية
5	تاج الدين السبكي (٧٧١هـ)	قاضي	1	تقليدية
6	شرف الدين الحنبلي (٧٧١هـ)	قاضي	2	جديدة
7	جمال الدين الشريشي (٧٦٩هـ)	قاضي	2	تقليدية
8	بدر الدين محمد بن احمد الحراني (٧٤٤هـ)	فقيه	1	جديدة
9	شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ)	مؤرخ ومُحدث	1	جديدة
10	شرف الدين بن ريان (٧٧٠هـ)	كاتب	1	تقليدية
11	ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)	فقيه	1	جديدة
12	جمال الدين المسلاتي (٧٧١هـ)	قاضي	2	تقليدية
13	صلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ)	كاتب	1	جديدة
14	نجم الدين ابن الشهيد (٧٩٣هـ)	كاتب	1	تقليدية
15	أمين الدين بن غانم (٧٦١هـ)	كاتب	1	جديدة
16	نجم الدين بن غانم (٧٥٨هـ)	كاتب	1	جديدة

ونفهم من هذا أن كفة التجديد ترجح على كفة التقليد في بناء الرسائل، فقد تجاوز الكتّاب البنية التقليدية في الاستفتاح والختام، وإن هذا التجديد ليس حكراً على الكتّاب وحدهم فقد اشترك معهم علماء الدين، وفيما يخص السمات الفنية فقد بقيت على حالها عند جميع الكتّاب فاعتمدوا مثلاً فنون البديع كالسجع، والجناس، والطباق، وغيرها، وانقسموا بين مكثر ومقل.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

نتائج البحث

١- يمثل وصف الطبيعة الصامتة والناطقة غرضاً شائعاً في الرسائل، وقد تطور هذا الغرض وتنوع بفضل أعلام الكتابة العربية مثل: عبد الحميد الكاتب، والصابي، والقاضي الفاضل، وابن الأثير، وشهاب الدين الحلبي .

٢- بدأ وصف الثلج في الشعر العربي بداية متواضعة وخجولة، ثم طوره الشعراء العباسيون مثل: أبي تمام، وكُشاجم، وأبي الفضل الميكالي، وغيرهم، وقد أفاد الكُتاب من صور الشعراء، وابتدعوا صورا جديدة للثلج .

٣- يشكل الاطلاع على الكتاب فرصةً لفهم تجاه النثر في القرن الثامن الهجري، ونحن نلمح تجاهين في بنية الشتويات من جهة الاستفتاح والختام، فقد مال العمري وبعض الكتّاب والعلماء الى التجديد وكان هذا الاتجاه الغالب، ومال كتّاب وعلماء آخرون إلى البنية التقليدية، وفيما يخص السمة الفنية للشتويات فقد كانت حافلة بفنون البديع اتباعاً للاتجاه السائد أيام دولة المماليك .

٤- كانت النظرة السلبية للثلج وآثاره هي الطابع الغالب على رسائل العمري، وهي تعبر بشكل غير مباشر عن شكوى الدهر، والتي تعد بمثابة قناع لشكوى السلطة القائمة، وقد تماشت بعض الردود مع العمري ولاسيما ردود الكُتّاب والشعراء،في حين كانت ردود علماء الدين بخلاف ذلك فقد امتدحت الثلج، وعدته نعمة ربانية يغيث به الله سبحانه وتعالى الأرض والبشر .

٥- لا تذكر كتب التراجم المعاصرة للعمري كتاب الشتويات، والسبب في ذلك أنه لم يتمه، ويبدو على الكتاب الاضطراب في ترتيب الرسائل، مما يدفعنا الى القول إن الترتيب ليس من وضع العمري .

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

المصادر

١. ابن فضل الله العمري (٢٠١٧) الشتويات. القاهرة : عالم الكتب

٢. ابن فضل الله العمري. (٢٠١٠) مسالك الأبصار في ممالك الانصار. بيروت: دار الكتب العلمية .

٣. أبو الطيب المتنبي. (١٩٨٦) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي. بيروت: دار الكتاب العربي.

٤. أبو العباس القلقشندي. (١٩٨٧) صبح الأعشى في صناعة الانشا. بيروت : دار الكتب العلمية .

٥. أبو الفتح كشاجم . (١٩٧٠) الديوان. بغداد: مطبعة دار الجمهورية .

٦. أبو الفضل الميداني. (٢٠٠٤) مجمع الأمثال. بيروت: دار الكتب العلمية.

٧. أبو القاسم الصاحب بن عباد (٢٠٠١) الديوان . بيروت : مؤسسة الاعلمي للمطبوعات.

٨. أبو منصور الثعالبي. (١٩٨٣) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. بيروت : دار الكتب العلمية.

٩. أحمد زكي صفوت. (١٩٧٠) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة . بيروت: المكتبة العلمية.

١٠. اسماعيل ابن كثير. (٢٠٠٧) البداية والنهاية. دمشق وبيروت: دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع.

١١. تاج الدين السبكي. (١٩٧٦) طبقات الشافعية الكبرى. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

١٢. جلال الدين السيوطي. (١٩٨٧،) كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة. القاهرة: عالم الكتب .

١٣. جمال الدين ابن منظور. لسان العرب . بيروت : دار صادر.

١٤. حبيب بن أوس أبو تمام. (١٩٧١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي. القاهرة : دار المعارف.

١٥. شهاب الدين النويري . (١٩٣٣) نهاية الأرب في فنون الادب. القاهرة: دار الكتب المصرية .

١٦. شهاب الدين محمود الحلبي. (١٩٨٠) حسن التوسل الى صناعة الترسل. بغداد : دار الرشيد للنشر.

١٧. صلاح الدين الصفدي . (١٩٧٤) الوافي بالوفيات. فيسبادن: فرانز شتاينر.

١٨. صلاح الدين الصفدي. (١٩٧١) نصرة الثائر على المثل السائر. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية

١٩. صلاح الدين الصفدي. (١٩٩٨) أعيان العصر وأعوان النصر. دمشق: دار الفكر.

٢٠. صلاح الدين الصفدي. (٢٠٠٤) ألحان السواجع بين البادئ والمراجع. دمشق: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢١. ضياء الدين ابن الأثير (1973) .المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٢٢. ضياء الدين ابن الأثير (1983) .الرسائل . الموصل: منشورات جامعة الموصل.

٢٣. عبد الله بن عمر العرجي . (١٩٩٨) الديوان . بيروت : دار صادر.

٢٤. عمر ابن الوردي. (١٩٨٦) الديوان . الكويت : دار القلم للنشر والتوزيع.

٢٥. محمد بن اسماعيل البخاري. (٢٠٠٢) صحيح البخاري. دمشق وبيروت: دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٦. محمد بن الحسن ابن حمدون . (١٩٩٦) التذكرة الحمدونية. بيروت: دار صادر.

٢٧. همام بن غالب الفرزدق . (١٩٨٣) الديوان . بيروت: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

References

1. Ibn Fadlallah Al-Omari (2017) Winters. Cairo: World of Books
2. Ibn Fadlallah Al-Omari. (2010) Paths of vision in the Ansar kingdoms. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
3. Abu Al-Tayyib Al-Mutanabbi. (1986) Explanation of Al-Mutanabbi's Diwan by Al-Barquqi. Beirut: Dar Al-Kitab Al-Arabi.
4. Abu Abbas Al-Qalqashandi. (1987) Subh Al-Asha in the construction industry. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
5. Abu Al-Fath Kashjam. (1970) Al-Diwan. Baghdad: Dar Al-Jumhuriya Press.
6. Abu Al-Fadl Al-Maidani. (2004) Collection of Proverbs. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
7. Abu Al-Qasim Al-Sahib bin Abbad (2001) Al-Diwan. Beirut: Al-Alami Publications Foundation.
8. Abu Mansour Al-Thaalabi. (1983) The Orphan of Time in the Virtues of the People of the Age. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
9. Ahmed Zaki Safwat. (1970) Collection of Arab Letters in the Prosperous Arab Ages. Beirut: Scientific Library.
10. Ismail Ibn Kathir. (2007) The Beginning and the End. Damascus and Beirut: Dar Ibn Kathir for printing, publishing and distribution.
11. Taj al-Din al-Sabki. (1976) The Great Shafi'i Classes. Cairo: Dar Revival of Arabic Books.
12. Jalal al-Din al-Suyuti. (1987), Revealing the clinking description of the earthquake. Cairo: World of Books.
13. Jamal al-Din Ibn Manzur. Tongue of the Arabs. Beirut: Dar Sader.
14. Habib bin Aws Abu Tammam. (1971) Diwan Abi Tammam, explained by Al-Khatib Al-Tabrizi. Cairo: Dar Al-Maaref.
15. Shihab al-Din al-Nuwayri. (1933) The End of Arabism in the Arts of Literature. Cairo: Egyptian Book House.
16. Shihab al-Din Mahmoud al-Halabi. (1980) Hassan al-Tawassul for the transmission industry. Baghdad: Al-Rasheed Publishing House.
17. Salah al-Din al-Safadi. (1974) Al-Wafi bi al-Wafiyyat. Wiesbaden: Franz Steiner.
18. Salah al-Din al-Safadi. (1971) Supporting the rebel against the prevailing ideal. Damascus: Arabic Language Academy Publications
19. Salah al-Din al-Safadi. (1998) Notables of the Age and Helpers of Victory. Damascus: Dar Al-Fikr
20. Salah al-Din al-Safadi. (2004) Al-Sawa'i' melodies between the beginning and the references. Damascus: Dar Al-Bashaer for printing, publishing and distribution.
21. Diya al-Din Ibn al-Atheer. (1973) The prevailing proverb in the literature of the writer and poet. Cairo: Dar Nahdet Misr for Printing and Publishing.
22. Diya al-Din Ibn al-Atheer. (1983) The Messages. Mosul: Mosul University Publications.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X
23. Abdullah bin Omar Al-Arji. (1998) Al-Diwan. Beirut: Dar Sader.
24. Omar Ibn Al-Wardi. (1986) Al-Diwan. Kuwait: Dar Al-Qalam for Publishing and Distribution.
25. Muhammad bin Ismail Al-Bukhari. (2002) Sahih Al-Bukhari. Damascus and Beirut: Dar Ibn Kathir for printing, publishing and distribution.
26. Muhammad bin Al-Hassan bin Hamdoun. (1996) The Hamdounian Ticket. Beirut: Dar Sader.
27. Hammam bin Ghalib Al-Farazdaq. (1983) Al-Diwan. Beirut: Lebanese Book House and School Library.